الإصلاح الفكري والاجتماعي في العالم العربي خلال عصر النهضة
الإمام محمد عبده أنموذجا

أ. خديجة لعمارة
جامعة الشهيد حمة لخضر – الوادي

الملخص:

يعد الإمام محمد عبده واحدا من أبرز المجددين في الفكر الإسلامي في العصر الحديث، وأحد دعاة الإصلاح وأعلام النهضة العربية الإسلامية الحديثة، فقد ساهم بعلمه ووعيه واجتهاده في تحرير العقل العربي من الجمود الذي أصابه لعدة قرون، كما شارك في إيقاظ وعي الأمة نحو التحرر، وبعث الوطنية وإحياء الاجتهاد الفقهي لمواكبة التطورات السريعة للعلم، ولم يكن التجديد الذي نادى به هدما للماضي، ولا قضاء على التراث، بل كان توظيفا للتراث في خدمة العصر، وإخضاع ظواهر العصر الحديثة إلى أحكام الشريعة الغراء.

abstract:

The Imam Muhammad Abdo one of the leading innovators in Islamic thought in the modern era, and one of the advocates of reform and the flags of the Islamic Renaissance modern Arabic, has contributed his knowledge and awareness and diligence in the liberation of the Arab mind of inertia that has become for many centuries, also participated in the awakening consciousness of the nation towards freedom, and sent and the revival of national jurisprudence to keep pace with the rapid developments in science, innovation was not advocated by the demolition of the past, not the elimination of heritage, but the main employers in the era of the Heritage service, and the placement of the phenomena of the modern era to the provisions of Shariah.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

قد تعتري تاريخ أمة من الأمم في فترة من الفترات، الجمود أو التراخي، وقد تستمر هذه الفترة طويلا، ما لم يأت من يجدد للأمة دورتها الدموية لكي تستعيد نشاطها وحيويتها, فيظهر نجمها بعد فول ويعلو صوتها بعد سكون, وهذا خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، يقر بما امتازت به هذه الشريعة الغراء، على غيرها من الديانات حيث يقول:" إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها "

وقرر أيضا أن التجديد وارد وممكن و مطلوب لزيادة الإيمان فقال لأصحابه " جددوا إيمانكم " فلما سألوه يا رسول الله و كيف نجدد إيماننا؟ قال : " أكثروا من قول لا إله إلا الله" .

فالتجديد هو عملية علمية تستهدف إحياء رسالة الإسلام في النفوس و في المجتمعات، وتقديمه بصورة معاصرة، تتطلب استيعاب كل معطيات العصر و حاجاته, والشيخ محمد عبده من أهم الشخصيات التي جددت للأمة العربية و الإسلامية دينها و فكرها و حيويتها، والذي أدرك بناقد بصيرته أنه لا يصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، فالدين هو الأساس لأي إصلاح وتجديد.

أهداف البحث: نهدف من خلال هذا البحث إلى إبراز جوانب التجديد عند هذه الشخصية والأسس التي اعتمدها للتجديد .

أهمية البحث: تكمن أهمية هذا البحث في التعرف على مايلي:

- التعريف بشخصية الإمام محمد عبده ، وأهم محطات حياته .
- التعريف بأهم المؤلفات التي ألفها.
- بيان الأسس التي اعتمدها للتجديد.
- بيان مجالات التجديد عنده.

منهجية البحث: اعتمدت في البحث المنهج الاستقرائي، وذلك باستقراء ما كتب في الموضوع حول هذه الشخصية .

محددات البحث: تناولت في المجالات، ماله علاقة بالمجال الديني، تربية و تعليم، تفسير، فقه، قضايا المرأة، دون التطرق للمجال السياسي .

خطة البحث:

المقدمة :

المبحث الأول : التعريف بالإمام محمد عبده .

المطلب الأول : مولده و نشأته .

المطلب الثاني : وفاته و مؤلفاته .

المبحث الثاني: أسس التجديد ومجالاته عند الإمام محمد عبده .

المطلب الأول : أسس التجديد .

المطلب الثاني : مجالات التجديد .

الخاتمة.

المبحث الأول : التعريف بالإمام محمد عبده

نحاول في هذا المبحث التعريف بالإمام محمد عبده وذلك من خلال الوقوف عند أبرز المحطات في حياته الزاخرة بالأحداث والانجازات لمعرفة معالم هذه الشخصية المجددة والظروف التي أدت به إلى سلوك هذا الاتجاه.

المطلب الأول: مولده و حياته .

هو الإمام محمد عبده بن حسين خير الله، ولد في قرية "محلة نصر" بمركز " شبراخيت " من أعمال محافظة البحيرة سنة (1266 هـ- 1849 م) في أسرة تعتز بكثرة رجالها، و مقاومتهم لظلم الحكام، وتحملهم في سبيل ذلك العديد من التضحيات هجرة و سجنا، و تشريدا و موتا ، وضياع ثروة .

تلقى تعليمه الأولي للقراءة و الكتابة، وحفظ القرآن بالقرية و بدأ ذلك و هو في السابعة من عمره ثم ذهب إلى "الجامع الأحمدي " بطنطا ليحضر هناك دروس تجويد القرآن الكريم سنة (1379هـ - 1862 م) بدأ بعدها يتلقى دروسه الأزهرية بعد أن استكمل تجويد القرآن، استمر يتردد عليه قرابة العام و النصف، إلا انه لم يستطع أن يتجاوب مع المقررات الدراسية أو نظم الدراسة العقيمة التي كانت تعتمد على المتون، والشروح التي تخلو من التقنين البسيط في العلوم، وتفتقد الوضوح في العرض[1].

عاد إلى قريته سنة (1282هـ - 1865 م) تزوج، وعزم على العمل بالزراعة مع أبيه و إخوته، و الانقطاع عن سلك التعليم، و لكن والده رفض ذالك، وقرر إعادته إلى الجامع الأحمدي في نفس العام. لكن الإمام استطاع الهرب في الطريق إلى بلدة "كنيسة أورين " ولجأ إلى أحد أخوال أبيه واسمه الشيخ درويش الذي حبب إليه العلم و طلبه، بسبب طريقته في التدريس حتى صار طلب العلم وتحصيله أحب شيء إلى نفسه، أقام عند الشيخ درويش 15 يوما، انتقل بعدها إلى طنطا خوفا من والده الذي وجهه إليها للدراسة ثم انتقل إلى الأزهر في منتصف شوال 1282 هـ، فداوم على طلب العلم على شيوخه ويعود إلى "محلة نصر " في آخر كل سنة ليتلقى الدروس من الشيخ درويش الذي يسأله : ما درست المنطق ؟ ما درست الحساب ؟ ما درست شيئا من مبادئ الهندسة ؟ و كان الأستاذ الإمام يلتمس عند عودته إلى القاهرة هذه العلوم عند من يعرفها.

تحول مجرى حياته عندما تعرف سنة (1288هـ -1871م) على جمال الدين الأفغاني تتلمذ على يديه و لازم حلقات درسه و لازمه كظله فقد أخرجه أستاذه نهائيا من عزلة التصوف إلى توقد الحياة الفكرية السياسية . و رحابة الحياة الكونية و علاقة الإسلام بالغرب، يرتبط فيها النظر بالعمل وتشمل فروع الفلسفة، والتصوف والتاريخ والسياسة والاجتماع[2], من هنا يأتي قول محمد عبده " إن أبي وهبني حياة يشاركني فيها علي ومحروس، والسيد جمال الدين وهبني حياة أشارك فيها محمد و إبراهيم و موسى وعيسى و الأولياء القدسيين [3]", لم يكتف الأفغاني بإخراج تلميذه من حياة العزلة إلى الحياة العامة وحسب، بل قاده إلى دراسة العلوم الحديثة المختلفة كالفلسفة والرياضيات والأخلاق والسياسة والفن وغير ذلك, مما لم يكن مألوفا في مناهج الأزهر ووجه حياته توجيها جديدا، ودربه على الإنشاء و الكتابة في الموضوعات الإصلاحية المختلفة, كان يكتب في الصحافة، وكان أول ما نشره باسمه كان في جريدة الأهرام في بداية نشأتها عام 1876، وعمره يومئذ سبعة وعشرون عاما .

كما شارك تحت قيادة أستاذه الأفغاني في النضال السياسي ضد سياسة الخديوي إسماعيل، و اشتركا في التنظيمات السياسية[4]، فدخل" الماسونية " وكانت جنة السمعة إلى حد كبير يومئذ، للدور الذي قامت به في أوربا في العصور الوسطى ضد استبداد الأباطرة وسلطة الباباوات، وسعيها في سبيل الديمقراطية والتحرر وأبعاد نفوذ الكنيسة الرجعي عن دوائر البحث العلمي، وتحرير عقول العلماء من إرهاب رجال الدين المحافظين، ورفعها شعارات الثورة الفرنسية (الحرية، والمساواة، والإخاء) ولم يكن الأثر السياسي لمن في قيادتها من اليهود قد ظهر بعد في قضايا الشرق العربي المصرية، إذ لم تكن الصهيونية الحديثة قد ظهرت بعد، ولا تكشفت نوايا اليهودية العالمية بالنسبة لفلسطين ومع ذلك فلقد خاب أمله فيها، مع أستاذه، عندما تحققا من مهادنتها للاستبداد، وصلاتها بالنفوذ الأجنبي، وخاصة الإنكليزي ودخل الإمام مع أستاذه الأفغاني في " الحزب الوطني الحر" الذي كان شعاره مصر للمصريين[5], نفي بعدها الأفغاني من مصر، وعزل محمد عبده من التدريس، وحددت إقامته "محلة نصر", وفي سنة (1880 م) استصدر رياض باشا ناظر النظار، عفوا من الخديوي توفيق عن الإمام واستدعاه من قريته و عينه محررا ثالثا في الوقائع المصرية، ثم عين رئيسا لتحريرها وتولي مسؤولية الرقابة على المطبوعات, بعدها عين عضوا في المجلس الأعلى للمعارف العمومية .

عندما اشتغل الإمام بالصحافة والسياسة برز اختلافه عن الأفغاني في وسيلة النهضة بالشرق والشرقيين فهو عندما يدرس لا يختلف عن الأفغاني إلا في درجة الميل إلى الفلسفة ولكن عندما يعمل بالسياسة العليا والمباشرة يبدو الفرق بينهما واضحا فرق المصلح من الثوري, انخرط محمد عبده وحزبه (الحزب الوطني الحر) في خضم الثورة العربية وكان في مكان المسؤولية والقيادة، وظل كذلك حتى هزيمة الثورة في سبتمبر1882 م, سجن ثلاثة أشهر ثم نفي ثلاث سنوات، ولكن الحكم امتد إلى ما يقارب من

ست سنوات، وكان منفاه إلى بيروت، لحق بعدها بالأفغاني في باريس، هناك خرجت جريدة " العروة الوثقى " إلى الوجود، وكان الإمام المحرر الأول، ونائب للأفغاني في رئاسة التنظيم الذي تنطق باسمه هذه المجلة " جمعية العروة الوثقى " السرية, زار" لندن" داعيا لوجوب جلاء الإنكليز عن مصر و التقى بوزير الحربية الإنكليزي ووجوه البرلمان والصحافة والرأي العام[6] بعد توقف " العروة الوثقى"، ويأسه من العمل السياسي المباشر كوسيلة لنهضة الشرق غادر باريس إلى تونس ومنها إلى بيروت حيث مارس فيها العمل الثقافي والتربوي والفكري إلى جانب القليل من العمل السياسي المباشر، لأن صلته لا تزال قائمة مع جمال الدين الأفغاني .

ومن هذه الأعمال:

– كتب العديد من المقالات الاجتماعية و التربوية .

– اشتغل بالتدريس.

– بدأ تفسير القرآن الكريم بمنهج عقلي حديث، طبق فيه منهج أستاذه الأفغاني، وكان ذلك بالمسجد العمري ببيروت.

– صدر العفو من الخديوي توفيق، فعاد الأستاذ إلى مصر سنة (1889م) [7] .

ونقول في الخلاصة أنه بعد عودته إلى بيروت، بعد أن يئس من العمل السياسي، عاودته الرغبة إلى الإصلاح والتجديد, فالأفغاني كان تركيزه على العمل السياسي، و محمد عبده التجديد الفكري, حيث انطلق كلاهما من الاعتراف بضرورة النهضة والتجديد للعالم الإسلامي الذي أصابه الركود والانحطاط، وألم به الخطر الغربي لكن أساليبها ازدادت تباينا مع مرور الوقت إلى أن حدثت القطيعة بينهما بعد إخفاق مشروع " العروة الوثقى"[8].

المطلب الثاني: وفاته ومؤلفاته .

1– وفاته: لم يلبث أن أحس الإمام بوطأة المرض، فعزم على السفر إلى أوربا للاستشفاء ولكن ذلك لم يمنعه من مواصلة العمل في مجلس الشورى، الأوقاف والجمعية الخيرية الإسلامية و امتحان دار العلوم وإعداد مشروع مدرسة القضاء, ولكن المرض ألح عليه وأختلف الأطباء في تشخيصه، ولكن تبين أنه أصيب بمرض السرطان الذي لم يمهله طويلا، فانتقل في اليوم الحادي عشر من شهر يوليو سنة (1905 م) إلى الرفيق الأعلى وكان عمره ستة وخمسين عاما, توفي الإمام في منزل صديقه محمد بك راسم في رمل الإسكندرية، فقرر مجلس النظار أن تحتفل الحكومة رسميا بتشييع جنازته في الإسكندرية ومصر، وكان مشهدا مهيبا[9].

2- مؤلفاته: كان الإمام محمد عبده كثير الكتابة والمقالات وذلك في العديد من المجالات والجرائد، منها: الأهرام، الوقائع المصرية، الجنة كما اشترك مع الشيخ جمال الدين الأفغاني في إصدار مجلة العروة الوثقى.

فمن مقالاته التي نشرها في جريدة الوقائع المصرية :

- عيد مصر ومطلع سعادتها.
- حكم الشريعة في تعدد الزوجات.
- حكومتنا والجمعيات الخيرية.
- العدالة والعلم.
- تأثير التعليم في الدين والعقيدة.
- خطأ العقلاء.

ومن مقالاته السياسية:

- رسالة للسير صمويل بيك في السودان ومصر وإنجلترا.
- مصر وجريدة الجنة .
- مصر والمحاكم الأهلية[10].

أما المؤلفات التي تركها فمنها:

- تفسير القرآن الكريم .
- مجموعة فتاوى (بدار الإفتاء) نحو ألف فتوى .
- رسالة الواردات.
- ترجمة الرد على الدهريين لجمال الدين الأفغاني .
- شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني.
- شرح نهج البلاغة المنسوب لسيدنا علي بن أبي طالب.
- شرح البصائر النصيرية.
- رسالة التوحيد.
- الرد على هانوتو.
- الرد على فرح انطون.
- رسائل و كتابات مختلفة.
- رحلة صقلية .
- نظام التربية والتعليم في مصر[11].

المبحث الثاني: أسس التجديد و مجالاته عند الإمام محمد عبده

لم يكن التجديد الذي دعا إليه الإمام محمد عبده مجردا وإنما هو قائم على أسس متينة متعددة والتي أدت إلى تعدد مجالات التجديد أيضا ليشمل مختلف نواحي الحياة.

المطلب الأول: أسس التجديد عند الإمام محمد عبده .

بنى الإمام محمد عبده دعوته إلى التجديد على الأسس التالية:

1- التخلي عن رذائل الجهل والتقليد والخرافات فدعا إلى المزيد من نشر التعليم الذي يقضي على الجهل والأمية، وكلما ازدادت ساحة العلم والتعليم في مجتمع ازدادت ساحة النهضة والتجديد، ومن هنا أخذ يدعو إلى العلم وانتشار مؤسساته ودوره وإلى إصلاحه وتطويره، وإلى تحرره من الكتب التي تنشر المعلومات الخاطئة، أو الخرافات البعيدة عن الحق، وناهض في دعوته التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والأمر الثاني: إصلاح أساليب اللغة العربية.

ومما لا شك فيه أنها دعوة تتسق مع ما دعا إليه الإسلام و ما حذر منه القرآن الكريم من سلوك طريق التقليد، وما حذر منه الرسول –صلى الله عليه وسلم– من مخاطر التقليد حيث جاء عن حذيفة – رضي الله عنه – قال : قال –رسول الله صلى الله عليه وسلم– : " لا تكونوا إمعة تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا ".

وقد نعى القرآن الكريم على أولئك الذين وقعوا أسرى العادة والإلف تجافيهم عن الحق، وضرب مثلهم بمن ينادي على حيوان يسمع الصوت ولا يفهم له معنى فهم في أنهما كهم في التقليد الأعمى ووقوعهم فريسة التبعية البلهاء كمثل الصم والبكم قال الله تعالى: " وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الادعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون". (البقرة : 170 – 171).

2- والأساس الثاني من أسس التجديد، الدعوة إلى التحلي بالعلم واحترام العقل والتفكير، قال الإمام محمد عبده: " والعقل من أجل القوى، بل قوة القوى الإنسانية وعمادها، والكون جميعه هو صحيفته التي ينظر فيها كتابه الذي يتلوه، وكل ما يقرؤه فيه فهو هداية إلى الله، وسبيل للوصول إليه ".

إنه ينبه إلى أهمية استخدام العقل الذي وهبنا الله تعالى إياه فهو الذي يميز بين الخير والشر, والحق والباطل والنافع والضار، وبدونه لا يكون الإنسان إنسانا، إنه قوة القوى الإنسانية وعمادها، ويشير إلى أن العقل ينظر في كتابة الكون المفتوح فيهتدي إلى الله سبحانه و تعالى، ولكن العقل وحده غير كاف, إذ إن الله تعالى لم يترك الناس لعقولهم فحسب ليهتدوا بها إلى خالقهم و دينهم وما يجب عليهم بل أرسل الرسل مبشرين ومنذرين وأنزل الكتب السماوية لهداية الخلق وإرشادهم وتصحيح أوضاعهم وتشريع ما ينفعهم ويرشدهم .

3- الجمع بين الأصالة والمعاصرة وأن الإسلام يدعو إلى العلم ويحث عليه، ويرحب بالعلم الحديث واكتشافاته فلا خصومة بين الدين والتقدم العلمي, بل إن الإسلام هو دين العلم حث عليه وأمر بالسير والنظر لما في الكون من أسرار.

إن التراث له أهميته في مجال التجديد، كما أن المعاصرة لها أهميتها كذلك، وليس معنى التجديد أن ننقطع عن تراثنا, إذ هو الأساس و الموجه إلى المستقبل وإلى التجديد ولكن لا يقع المجتمع فريسة التقليد فدعا الشيخ محمد عبده إلى تحرير الفكر من قيد التقليد، وقال في هذا الصدد ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين:

فالأمر الأول: تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف .

والأمر الثاني: إصلاح أساليب اللغة العربية.

والتجديد الذي يدعو إليه الإمام محمد عبده ودعوته إلى الإصلاح والجمع بين الأصالة و المعاصرة كل ذلك يقوم على أساس من تعاليم الإسلام، حتى لا يكون هناك إفراط في مجال التجديد و تحكيم العقل فيحدث إفلات في من تعاليم الدين, كما أنه في الوقت نفسه لا يتلبث الناس بالجمود ويظلون كما هم دون تقدم أو تطوير أو تجديد، بل إن الدين حاكم على كل تقدم و تجديد بحيث لا يحدث شطط أو إفراط أو تفريط[12].

المطلب الثاني : مجالات التجديد عند الإمام محمد عبده

1- **التجديد في مجال التربية والتعليم:** اهتم الإمام محمد عبده بمجال التربية والتعليم كثيرا، حيث اعتبره مفتاح العملية الإصلاحية التي قام بها، وأنه بتجديد التعليم ومناهجه يستطيع إنتاج مجتمع جديد بتفكير جديد

فرأى أن السبيل الوحيد للإصلاح الديني، وللرقي عليه أن يستند على إصلاح المدرسة، كجهاز للتربية والتعليم معتقدا أن تجديد فهم الإسلام، بإصلاح الذهن، سيقود حتما إلى نشر العلم بين المسلمين فاهتم عبده بشكل رئيسي بإصلاح الأزهر الذي كان المؤسسة التعليمية الكبرى، والمؤثرة في العالم الإسلامي[13], وجاءته هذه الفرصة عندما استشاره عباس باشا في الوسائل التي تمكنه من مناهضة الإنكليز، فذكر له الإمام أنهم تركوا له الأزهر والأوقاف الإسلامية والمحاكم الشرعية وأنه لو اشتغل بإصلاحها لصلح حال البلاد, فحرص على تجديد نظام الأزهر تجديدا شاملا، لكن أولي الأمر لم يوافقوه على هذه الطفرة، ورأوا أن يتم ذلك بالتدريج، لهذا كان التجديد من الناحية الإدارية والصحية الخلقية واقتصر على إدخال العلوم الحديثة في الدراسة، ولم يتناول التجديد طريقة الدراسة.

لكن الإمام لم يقتنع بسير العملية التجديدية، فتدارك ذلك النقص في الدروس التي كان يلقيها في التفسير والبلاغة ونحوها من العلوم، فدعا إلى الإصلاح بأوسع معانيه، وفتح فيها باب الاجتهاد على

مصرعيه واختار لها الكتب الصالحة مثل: كتابي دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للشيخ عبد القاهر الجرجاني, ومكث على هذا عشر سنين إلى غضب عباس باشا على الشيخ محمد عبده، ووضح له عقبات في سبيل الإصلاح والتجديد، الذي يقوم به في الأزهر، وسلط عليه علماءه، يتهمونه في عقيدته، ويطعنون في دينه فنفض يده من هذا الإصلاح, اتجه بعدها بأنظاره إلى " دار العلوم " التي جمعت بين علوم الدين والدنيا معتقدًا " أن دار العلوم تصلح أن تكون ينبوعًا للتهذيب النفسي والفكري والديني والأخلاقي، ويمكن أن ينتهي أمرها إلى أن تحل محل الأزهر، وعند ذلك يتم توحيد التربية في مصر", كما اهتم في إصلاح المدرسة الأميرية، ومدارس التعليم الدينية فقد أراد إقامة جسر لردم الهوة بين التعليم التقليدي، والتفكير العلمي المستورد من الغرب[14].

2- **التجديد في المجال الديني:** حدد الإمام محمد عبده، هدفه من الإصلاح والتجديد الديني عندما قال: أنه يعني تجديد الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف هذه الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه إلى ينابعها الأولى، واعتباره ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه وتقلل من خلطه وخبطه، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني، وأنه على هذا الوجه يعد صديقًا للعلم باعثا على البحث في أسرار الكون، داعيا إلى احترام الحقائق الثانية، مطالبا بالتعويل عليها في دأب النفس وإصلاح العمل, وكان الإمام مدركًا لوعورة هذا الطريق الذي اختاره، وأنه يحتاج إلى قدر كبير من الشجاعة لأنه بدون ذلك لن يستطيع التجديد أن يواجه المجتمع المربوط بعادات وأفكار معينة, وحول هذه القضية يقول محمد عبده : " إن الفكر إنما يكون فكرا له وجود صحيح إذا كان مطلقا مستقلا يجري في مجراه الذي وضعه الله عليه، إلى أن يصل إلى غايته و أما الفكر المقيد بالعادات المستعبد بالتقليد، فهو المرذول الذي لا شأن له وكأنه لا وجود له والشجاعة هي التي تعتق الأفكار من رقها وتنزع عنها السلاسل والأغلال لتكون حرة مطلقة ", وكان تجسيد هذا الفكر في التجديد الديني في أمرين:

الأمر الأول: البدء بالمؤسسات الدينية وكان أهمها الأزهر الشريف

- الذي بينا سابقا - جوانب التجديد التي قام بها الإمام في هذه المدرسة[15] .

الأمر الثاني: الذي اهتم بالتجديد فيه هو تفسير القرآن الكريم والذي يرى أن له وجوها شتى:

- النظر في أساليب الكتاب ومعانيه وما اشتمل عليه من أنواع البلاغة ، ليعرف به: علو الكلام وامتيازه على غيره من القول.

- الإعراب وقد اعتنى بهذا أقوام توسعوا في بيان وجوهه وما تحمله الألفاظ منها.

- تتبع القصص، وقد سلك هذا المسلك أقوام زادوا في قصص القرآن الكريم ما شاءوا من كتب التاريخ والإسرائيليات .

- غريب القرآن الكريم.

– الأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات والاستنباط منها.

– الكلام في أصول العقائد ومقارعة الزائغين .

– المواعظ والرقائق .

– ما يسمونه بالإشارة, وقد اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية الصوفية[16] .

أما هدفه من التفسير فهو تنقية تفسير القرآن الكريم مما علق به من الإسرائيليات والأحاديث الموضوعية والخرافات والاستطرادات النحوية ونكت المعاني ومصطلحات البيان وجدل المتكلمين وتخريجات الأصوليين واستنباطات الفقهاء المقلدين وتأويلات المتصوفين, تعصب الفرق وكثرة الروايات والعلوم الرياضية والطبيعية[17].

كما للإمام آراء فيما يخص:

أ– **الوحدة الموضوعية** : فهمها الأستاذ محمد عبده على أنها النظر في السورة الواحدة كوحدة تترابط أجزاؤها وتتماسك معانيها في سياق واحد ليكون وحدة منها ذات موضوع واحد لا تنافر بينه ولا اختلاف بحيث لو فرق النظر وشتته لم يصل إلى غاية ولم يبصر تناسقا في الآيات فكانت الوحدة هي الضابط الذي يعول عليه في فهم الآيات, هكذا فهم الأستاذ وهكذا فسر وهكذا عرض للسورة عرضا يظهر فيه تناسق الآيات وما تهدف إليه من معنى يرتبط أوله بآخره وآخره بأوله, فهو في بداية تفسيره للسورة يعطينا هذه الحقيقة ويوقفنا على هذا السر فما نحس إلا والسورة لوحة رائعة تناسقت ألوانها وتكاملت معالمها وترابطت مبانيها, فالأستاذ محمد عبده هو من وضع هذه الفكرة موضع التطبيق بعد أن أشار إليها علماء قبله كالشاطبي والسيوطي، حيث يقول الأستاذ:" أن السورة الواحدة تلاحظ فيها غايات ثلاث: أولها موضوع تدور حوله ثانيها مؤمن يتحدث إليه بما فيه هداية، ثالثها: مقتضى حال يدور بين أسباب النزول وداعية القول وما بين ذلك من السببين الآنفين".

ب– **الإعجاز:** لقد أجاد الأستاذ الإمام في قضية "الإعجاز" وما يتصل بها من معنى اختلف حوله المتقدمون وتعارض فيه الباحثون وتعمق فيه الأصلاء من أهل الصنعة، فمنهم من جعله معجزا بالصرفة ومنهم من جعله معجزًا بالنظم والسبك، ومنهم من ناقض هذه المفاهيم إلى غيرها من أوجه الإعجاز على اختلاف مذاهبهم الكلامية ومناحيهم الإعتقادية ومداركهم البلاغية, فالإعجاز عنده في القرآن الكريم يكون بأسلوبه ونظمه وبلاغته وبتأثيره في القلوب والعقول، وكذا بأخبار الغيب فيه وتعبيره عن المعاني بما يقبله المختلفون في فهمها مع موافقة الحق وسلامته من الاختلاف، وبالعلوم الدينية والتشريع وبعجز الزمان من إبطال شيء منه وتحقيق مسائل كانت مجهولة للبشر.

ج– **التفسير النفسي:** جاء الإمام بهذه النظرية الجديدة في التفسير، وفتح الطريق لها، ولفت الأنظار نحوها لتؤتي فهما سديدا لدى الشيخ أمين الخولي وتحليلا دقيقا وتذوقا رائعا لدى الشهيد سيد قطب في

تصويره الفني للقرآن الكريم, قال الأستاذ الإمام: المد الصحيح للبلاغة في الكلام هو أن يبلغ به المتكلم ما يريد من نفس السامع بإصابة موضع الإقناع من العقل والوجدان من النفس (وقد يعبر عنهما بالقلب) و لم يعرف في تاريخ البشر أن كلاما قارب القرآن في قوة تأثيره في العقول و القلوب فهو قلب طباع الأمة العربية وحولها من عقائدها و تقاليدها و صرفها من عاداتها و عداوتها و بدلها بأميتها حكمةً و علمًا و بجاهليتها أدبًا رائعًا و حلمًا، وألف من قبائلها المتفرقة أمة واحدة سادت العالم بعقائدها و فضائلها وعدلها و حضارتها و علومها[18].

– إعلاؤه شأن العقل في تفسير القرآن، وهو كتاب الدين الأول والأساسي، ورأيه في وجوب أن يطرح الذين يريدون تفسير القرآن الكريم تفسيرا حديثا مستنيرا، أن يطرحوا جانبا " رؤية " السابقين من المفسرين وأن يتزودوا فقط بالأسلحة والأدوات اللغوية، وشيء من أسباب النزول، ومعلومات السيرة النبوية، ومعارف التاريخ الإنساني, فهو يعتبر أن" رؤية " المفسرين السابقين قد ارتبطت بالجانب العقلي ودرجة العلم التي بلغوها وتحصلت لمجتمعاتهم وبيئاتهم الثقافية، وليس بالضرورة أن يكون عقلنا واقفًا عندما بلغوه فقط ولا أن تكون حصيلتنا الفكرية هي فقط ما حصلوه[19].

الأمر الثالث: التجديد في الفقه: كان الإمام يرى أن الفقه يحتاج إلى تجديد يلاءم أحوال الناس في عصره، بينما عكف العلماء في الأزهر على دراسة الفقه القديم المبني على فقه علماء المذاهب الأربعة لا يحيدون عنه إلى غيره وأن الشروح المطولة المؤلفة على هذه المذاهب لا تكفي في مواجهة الحياة الجديدة التي طرأت على المجتمعات العربية والإسلامية، وإذا كانت الحضارة الإسلامية في عصور القوة زاهرة قوية، فقد آن الأوان لكي يسطع نورها في الآفاق من جديد بعد أفوله زمنا بسبب عصور الانحطاط والجمود لاسيما بعد مواجهة الحضارة الأوربية التي تهدد أمن البلاد بالتدخل في شؤونها الداخلية و تطبيق القوانين الأجنبية على الهيئات التشريعية وعلى الناس فيها, لما كان الأستاذ يدعو إلى التجديد لما توارثته الأجيال من الفقه المحصور في المذاهب الأربعة فقد أشار إلى النهوض بعلوم الوسائل كعلوم اللغة والبلاغة والتاريخ والجغرافيا والحساب والهندسة والفلسفة والمنطق وغيرها, لأنها تعين على فهم هذا الفقه واستيعاب مسائله[20].

3– التجديد في المجال الاجتماعي: كانت أبرز قضية شغلت الإمام في هذا المجال قضية المرأة وذلك في ثلاث نقاط رئيسية هي :

أ– **تعليم المرأة:** فقد نادى من وقت مبكر بتعليم المرأة، سخطا من الواقع الذي كانت تعيشه المرأة في عصره من جهل وبعد عن الدين، وإتباع الخرافات, وهو قد دافع عن هذه القضية متضامنا من وراء ستار مع تلميذه قاسم أمين فيما جاء بكتاب " تحرير المرأة " عن تعليم النساء .

ب– تقييد طلاقها: بحيث جعل سلطة الطلاق بيد القاضي في عدد كبير من الحالات كالهجرة بغير سبب شرعي، والضرب والسب بدون سبب شرعي.

ج- تعدد الزوجات: يرى تحريم تعدد الزوجات إلا في حالة واحدة هي عجز الزوجة عن الإنجاب وذلك عندما رأى :

- أن نظام تعدد الزوجات مرتبط بظروف وعوامل ليست مقصورة على الشرق ولا ملازمة لهم، وهو لذلك يمكن أن يزول بزوال هذه الظروف.

- أن نشأة هذا النظام انتشر في المجتمعات الحربية القديمة من قبل الرؤساء والقادة فأخذوا في حيازة النساء.

- إن الإسلام عندما أباح التعدد المحدود، إنما كان يريد الخروج من ظلم أشد فلقد كان الرجال الذين يكفلون اليتيمات يتزوجونهن طمعا في مالهم فقال لهم الإسلام دونكم النساء سواهن فانكحوا ما يطيب لكم منهن من واحدة إلى أربع .

- أن الإسلام قد اشترط تحقق العدل المطلق في حالة التعدد فإن ظن عدم تحقق هذا العدل المطلق، وجب الاقتصار على الزوجة الواحدة فالموقف ليس موقف الترغيب في التعدد بل التبعيض له, ولو عقل شرط العدل لما زاد المكثرون على الواحدة[21].

الخاتمة:

تعرفنا من خلال هذا البحث على شخصية الإمام محمد عبده وأبرز مجالات التجديد عنده، والذي جعل من حياته وقفا لتربية الشعب وتعليمه جاعلا من نفسه قدوة تحتدى، مواجها في سبيل ذلك أذى كثيرا فكان مثالا للصبر وآية للتحمل والصمود، ونستخلص من خلال هذا البحث النتائج التالية:

_ أن الشيخ محمد عبده من المجددين بحق لعصره الذي عاش فيه.

_ أن التجديد الذي نادى إليه جمع بين الأصالة والمعاصرة.

_ أن التجديد لا يعني أن ننقطع عن تراثنا إذ هو الأساس والموجه إلى المستقبل والى التجديد ولكن لا يقع المجتمع فريسة التقليد.

_ يقوم التجديد الذي دعا إليه على أسس من تعاليم الإسلام، حتى لا يكون هناك تفريط في مجال التجديد، وتحكيم العقل فيحدث إفلات من تعاليم الدين.

_ تعدد مجالات التجديد عند الإمام محمد عبده حيث شمل مجال التربية والتعليم والمجال الديني والاجتماعي وحتى السياسي .

وهكذا نجح الإمام في تحريك المياه الراكدة والتخفيف من حدة الجهل والمساهمة في القضاء على حالة التدهور الفكري السائدة في عصره وذلك من خلال فكره التنويري الجديد.

الهوامش:

[1] عمارة محمد، الإمام محمد عبده مجدد الدنيا بتجديد الدين،بيروت، دار الوحدة، 1985،ص 24-26.

الشيخ محمود، رجال الإصلاح، الأردن، دار البازوري، 2007،ص 22-23.

[2] الرومي، فهد، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط4، 1414هـ ،ج1،ص125.

[3] الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، تقديم محمد عمارة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1972،ج2، ص333.

[4] الكيلاني، شمس الدين، الإمام محمد عبده، سوريا، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2001،ص7-9-96.

[5] عمارة، محمد، مرجع سابق، ص30.

[6] عمارة، محمد، مرجع سابق ،ص31

عكاوي رحاب، الإمام الشيخ محمد عبده ي أخباره وآثاره، بيروت، دار الفكر العربي، ط1، 2001،ص34-35.

الكيلاني، مرجع سابق،ص5-13.

[7] عمارة، محمد، مرجع سابق،ص 31-42.بتصرف يسير.انظر الإمام محمد عبده في أخباره وآثاره ص40-64.

[8] الكيلاني، مرجع سابق، ص 96.

[9] المدني، عمر،رعاة الإصلاح العودة إلى الجوهر، عمان، الدار المتحدة للنشر،ص97.

[10] عمارة محمد، مرجع سابق، ص33.

[11] المرسي، كمال الدين عبد الغني، الإمام محمد عبده وأثره في تجديد الفقه والفكر الإسلامي، المكتب الجامعي الحديث، ط1،ص 47-48.

[12] هاشم أحمد عمر، الإمام محمد عبده مجددا، على شبكة الانترنت .www.islmonline.net.2009/12/11

[13] الكيلاني، مرجع سابق، ص 20-21.

[14] المرسي، مرجع سابق، ص 29-30.

[15] عمارة محمد، مرجع سابق، ص 50-52.

[16] محمود منيع عبد الحليم، مناهج المفسرين، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط1،1978،ص 309.

[17] الرومي، منهج المدرسة العقلية في التفسير، مرجع سابق،ص143.

[18] عبد الرحيم عبد الغفار، الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير، مطبعة الحلبي، 204-230.

[19] عمارة محمد، مرجع سابق،ص 68.

[20] المرسي، مرجع سابق،ص 63.

[21] عمارة، محمد، مرجع سابق، ص 243-251.